

الوافي في الوفيات

بعثتُ إليك رسالتي وفي علمي أن نك الكمي الذي لا يجاريك ندي والشجاع الذي أظهر حسن لوثتك للضد والبطل المنيع للجار والأسد الذي لك الأسل وجار والباسل الذي كم لخمير الغمود بتجريدك عن وجوه البيض انحسار ولك المعرفة في الحرب ولاماتها والشجاعة وآلاتها وإليك في أمرها التفضيل ولديك علم ما لجملتها من تفصيل وها هي احتوت على المفاضلة بين الرمح والسيف ولم تدر بعد ذلك كيف فإن السيف قد شرع يتقوى بحدته ولا يقف بمعرفة نفسه عند حدته والرمح يتكثر بأنايبه ويستطيل بلسان سنانه ولم يثن في وصف نفسه فضل عنانه . وقد أطرقتها حماك لتحكم بينهما بالحق السوي وتُنصف بين الضعيف والقوي . أم السيف فإنّه يقول : أنا الذي لصفحتي الغرر ولحدسي الغرر وتحت ظلالتي في سبيل الجنّة وفي إطلالي على الأعداء النار ولي البروق التي هي للبصائر لا الأَبصارِ خاطفة وطالما لمعت فسادت سحبت النصر واكفة . ولي الجفون التي ما لها غير نصر من بصر وكم أغفت فمرر بها طيف من الظفر وكم بكت عليّ الأَجفان لمّا تعوّضت عنها الأَناقَ عُمودا وكم جلبت الأمان بيضَ والمنايا سودا وكم ألحقت رأساً بقدم وكم رعيت في خصيب نبتة اللّام وكم جاء النصر الأبيض لما أسلت النجيع الأحمر وكم اجتني ثمر التأييد من ورق حديدي الأخضر وكم من آية ظفر تلوتها لمّا صلّيت واتّقد لهيب فكري فأصليت فوصفي هو كذاتي المشهور وفضلي هو المأثور ؛ فهل يتناول الرمح إلى مفاخرتي وأنا الجواهر وهو العرض وهو الذي يُعتاض عنه بالسهام وما عندني عوض ؟ ! .

وإن كان ذاك ذا أسنّة فأنا أتعقّل لاد كالمندّة . كم حملته يد فكانت حمالة الحطب وكم فارس كسبه بحملاته فما أغنى عنه ما كسب . حدّه ليس من جنسه ونفعه ليس من شأن نفسه . وأين سمر الرماح من بيض المصّباح ؟ وأين ذو الثعالب من الذي يُحمى به أسود الضرائب ؟ وهل أنت إلاّ طويل بلا بركة وعامل كم عزلتك النبال بزائد حركة ؟ فنطق الرمح بلسان سنانه مفتخراً وأقبل في علمه معتجراً وقال : أنا الذي طُلمت حتّى اتّخذت أسنّتي الشّهب وعلوت حتّى كادت السماء تعقد عليّ لواء من السحب . كم مَيّلت نسيم النصر غصني وميّد وكم وهي به للملحدين ركن وللموحدين تشيّد وكم شمس ظفري طلعت وكانت أسنّتي شعاعها وكم دماء أظرت شعاعها ؛ وطالما أثمر غصني الرؤوس في رياض الجهاد وغدت أسنّتي وكأنا صيغت من سرور فما يخطرن إلاّ في فؤاد وكم شيهت أعطاف الحسان بما لي من مَيّلت وضرب بطول ظل قناتي المثل وزاحمت في المواكب للرياح بالمناكب وحسبي الشرف الأسنى أن أعلى الممالك ما عليّ يبنى . ما لمع سنانتي في الظلماء إلاّ خاله المارد من

رجوم السماء . فهل للسيف فخرٌ يطاول فخري أو قدرٌ يُسامي قدري ؟ ولو وقف السيف عند حدّه لعلم أنّّه القصير وإن كان ذا الحلّى وأنا الطويل ذو العلى . وطالما صدع هاماً فعادك هاماً وقصر عند العدى وألمّ بصفحة كَلَفِ الصدى وفلّ حدّه وأذابه الرُّعب لولا غمده . فهل يطعن فيّ بعيب وأنا الذي أظعن حقيقةً بلا ريب ؟ ومن هاهنا آن أن أمسك عنك لسان سناني ونرجع إلى من يحكم برفعة شأنك وشاني ونسعى إلى بابه ونبتّ محاورتنا برحابه . وقد أوردتهما المملوك حماك فاحكم بينهما بما بصّرك وأراك .

وقال وقد ربّتّب معاليمهم على شطّانوف : .

يا أميراً له من الجود بحر ... فهو جارٍ لنا بغير وقوف .

قد غرقنا في بحرهم وغمّ ... فطلعنا بذاك من شطّانوف .

وأنشدني لنفسه إجازةً العلامةُ شهاب الدين محمود ما قاله في بستان القاضي علاء الدين الذي بالمنشأة ومن خطّه نقلت : .

إيوانُننا للجِنان عنوانٌ ... كأنّّه في سناهِ كيوانٌ .

حلو المعاني كلفظ مَنشئهِ ... يَقصُرُ في الوصفِ غُمدانٌ .

تقابلتْ إذْ عِلاتٌ سرُريّ ... من المسرّات فيه إخوانٌ .

تركض في العيونُ فهو على ... لُطْفٍ به للعيون مَيّدانٌ .

يستقبل الرّوّحَ من صباه ومن ... شذاه رَوْحٌ ساريّ ورَيّحانٌ